

آباء الكنيسة

٨

# مختارات

من القديس غريغوريوس اللاهوتي التريتي

تعريب

الأسقف إسطفانوس حداد

منشورات النور

١٩٩٤

## على هامش الانجيل

المسيح الذي اختار صيادي السمك يصطاد هو، وينتقل من مكان الى مكان. لماذا؟ يفعل هذا لا ليربح لله أصدقاء أكثر ينتقله من مكان الى مكان، بل كما اعتقد، ليقدم أماكن أكثر. من أجل اليهود يصير كاليهود، ومن أجل الذين هم تحت الناموس، صار تحت الناموس، وذلك، ليشترى الذين هم تحت الناموس. من أجل المرضى، صار كالمرضى، ليخلص المرضى. صار الكل من أجل الكل، ليربح الكل. لماذا أقول الكل من أجل الكل؟ ان ما لم يحتمل بولس أن يقوله عن نفسه، أو يقبله على نفسه، يتحمله المخلص، ويقبله على نفسه. وهكذا فلم يصير يهودياً فقط، ويتقبل تعبيرات شريرة ظالمة وحسب، بل قبل أن يتلبس أسماء أجنبي وأشد نكراً. فقد صار لعنة من أجلنا، وصار الخطيئة الذاتية، جل وعلا! اذ كيف يسمي خطيئة، وهو الذي جاء ليحررنا من الخطيئة؟ وكيف يمكن أن يكون لعنة ذلك الذي اشترانا من لعنة الناموس؟ انه يرتضي ذلك ليبرهن لنا الى أي حد يبلغ تواضعه، ولكي يعطينا مثلاً عن التواضع الذي يرفعنا. صار مع صيادي السمك، كما قلت، وتواضع ليجذب اليه الكل، ويتقبل كل شيء من الأعماق، السمكة أي الانسان الساج في أمواج العمر المضطربة، والمياه المرة!

ها هو، بعد أن أنهى موعظته، يغادر الجليل، ويأتي الى جبال اليهودية عبر الاردن. كان قد جاء الى الجليل (موطن الوثنيين) وما أحسن ما عمل، ليرى الشعب السالك في الظلم نوراً عظيماً. ثم يصعد الى اليهودية ليقنع اليهود بترك الحرف واتباع الروح. يبذر تعليمه وينشر أعماله وعجائبه. فحيناً يعلم فوق الجبل، وحيناً يتكلم في مكان سهل. يدخل حيناً الى القارب، وحيناً ينتهر العاصفة. ينام حتى يبارك النوم ويتعب ليقدم التعب، ويدمع ويبكي حتى يجعل من الدمع شيئاً جديراً بالمدح. ينتقل من مكان الى مكان ذلك الذي لا يسعه مكان، وهو الذي فوق الزمان، والغير الجسدي، والغير المحدود، هو ذاته الذي كان وصار ويصير. وهو فوق الزمان ويدخل الزمان. هو غير منظور ويصير منظوراً. كان في البدء قبل الخليقة، وكان عند الله، وكان هو الله. ان كلمة «كان» تتأكد بالتكرار ثلاث مرات. فالذي كان أفرغ ذاته متواضعاً، واتخذ ما لم

يكن غير صائر اثنين، بل قَبِلَ على ذاته أن يصير واحداً من اثنين لهاً وانساناً. الآخذ والمأخوذ طبيعتان اتحدتا في شخص واحد، وليس اثنين. لا تضلنا الوحدة، وحدة الإله والإنسان معاً. إنه الجليل العظيم، والعزير القدير الحر المتصرف بحكمة في التنسيق والتدبير! ترى ماذا دهاني حتى اسقط في تعبيرات بشرية؟ كيف يمكن أن يكون البسيط عظيماً؟ كيف يمكن أن يكون جليلاً مَنْ لا يُقاس كمياً؟ اغفروا لي تعييري. اني أتكلم بجهازٍ صغير، وآلة بسيطة، عن أمور كبيرة جداً! لكن عفوي على ضعفي يأتيني من ذاك «الكائن» الذي يتقبل الضعفاء. لأنه ما دام قد قبل الجسد، فهو يتقبل الكلام بشكل الجسد.

جموع غفيرة تبعته فشفاهم هناك حيث كان القفر أكبر. فلو أنه بقي في علوه ولم ينزل الى المرضى. لو بقي ما «كانه» قابلاً في السموات العلى محتجباً عن عيون الناس (كما يريد له الذين لا يقبلون التجسد)، لو بقي بعيداً غير مقرب اليه، وغير محدود أو محصور في جسد مثلنا لكان الذين تبعوه نزرأ يسيراً من الناس، بل قل أن موسى وحده هو الذي تبعه لأنه تعرف عليه حين استطاع أن ينظر قفاه حين شق الغمامة، وذلك بعد أن تحرر من الثقل الجسدي، أو بعد أن حد هواه وحواسه. كيف يمكن أن يبصر الله والله لطيف بلا جسد؟

- أنا لا أعلم كيف اسمي ذلك؟ - وهو جسد وينظر بعيون جسدية؟ أجل أفهم ذلك بما يأتي: بما أنه تواضع من أجلنا، وبما أنه تنازل (أسمي التواضع الاقلال من المجد) لذلك صار مفهوماً ومدركاً.

عفوكم اذا تكلمتُ بشرياً - ننتقل الى الكلام عن الآلام - يأخذني الغضب بسبب ما يجري على مسيحي، الأمر الذي يجب أن تشعروا به أنتم أيضاً. أجل يأخذني الغضب والانفعال عندما أرى مسيحي يُهان - جلّ عن الإهانة - فيما يستوجب التكريم! قل لي: أيهون عندك المسيح لأنه تواضع من أجلك؟ لأنه يهتم بالخليقة، وهو مخلوق؟ لأنه يفتقد الذين هم أسفل يصير عندك تحت الزمن؟ مع ذلك يحتمل الكل، ويتقبل الكل! وأين هو العجب؟ قبل اللطم والبصاق، وذاق المر بسبب مذاقتنا. يقبل الآن أن يُرجم لا من أخصامه، بل منا نحن الذين نعتبر أنفسنا مؤمنين! لأن من يستعمل أسماء جسدية وأوصافاً جسدية، عندما يتكلم عمّن لا جسد له يكون كالأخصام ومثل الراجمين بالحجارة.

عفوك اللهم اننا لا نرجم بإرادتنا. لأننا لا نستطيع أن نتكلم بطريقة أخرى، ونستعمل الوسائل التي نملكها. نسميك كلمة، وأنت اسمي من الكلمة. نسميك ناراً، لأنك

تصبح مُدرِّكًا بحواسنا، بل لأنك تنقي المادة الخبيثة البطالة. نسميك مُدِيَّةً لأنك تقطع وتفصل الشر عن الخير. نسميك مذراة لأنك تنقي البيدر. كل ما هو خفيف، وتذريه الرياح يطرد بعيداً. وكل ما هو ثقيل يوضع في الأهرام السماوية. نسميك فأساً لأنك تقطع التينة العديمة الثمر، وتجثت أصول الخبث. نسميك باباً لأنك تسمح لنا بالدخول، وطريقاً لأنك تقودنا في الطريق الصحيح. وحمللاً لأنك ضحيت بذاتك، ورئيس كهنة لأنك قدمت جسدك، وابناً لأنك ولدت من الآب. أراني أصبحت كيوحنا صوت صارخ في البرية التي كانت قاحلة. أما الآن فصارت مليئة بالآدميين.

ولكن فالأعد إلى ما قلته. لقد تبعه جمع غفير لأنه انحنى بمعرفة على خطايانا. ماذا يقول الانجيل بعد ذلك؟ اقترب منه الفريسيون مجربين وقائلين: أيجوز للانسان أن يطلق امرأته لأقل علة؟ أترى يحتاج مفسرو الناموس إلى معلمين؟ لم يكن الصدوقيون الذين ضايقوه بمسألة القيامة، ولا الناموسيون المحاولون التوسع في معرفة الكمال، ولا الهيرودسيون ولا أصحاب العجاية، ولا السائلون عن السلطة، بل يسأله واحد عن الزواج، وهو خالق الزواج، وخالق الجنس البشري من المبدأ الأول: فأجابهم المسيح قائلاً: ألم تقرأوا في الكتاب أن الذين خلقهم الله ذكراً وأنثى خلقهم منذ البدء. ونحن نعلم أن المسيح كان يجيب على بعض الأسئلة، ويخرس أصحابها. فعندما سئل بأي سلطان تفعل هذا؟ أجابهم بسؤال آخر من عنده: معمودية يوحنا أمن السماء كانت أم من الأرض؟ بهذا السؤال الجواب معاً، كم أفواههم، وقيد ألسنتهم وأقدامهم وأيديهم. ونحن إذا تشبهنا بالمسيح نستطيع أن نلجم السنة الذين يحاربونا بالمجادلة فقط مستعملين معهم حكمة المسيح. فعندما تسمع سؤالاً معقولاً، فلا تحاول أن تهرب من اعطاء الجواب الحاضر المعقول.

فلنبحث السؤال الذي يطرح عن تطليق المرأة. إن الناموس الذي يعاقب المرأة وحدها دون الرجل هو ناموس غير مستقيم وغير عادل. لماذا يعاقب الأنثى ويفغر للرجل؟ لماذا يعتبر المرأة زانية إذا تركت مخدع زوجها ومهينة له، ولا يعاقب الرجل إذا زنى مع امرأة؟ أنا أرفض هذه الشريعة، وأحارب هذا العرف. والذين وضعوا هذه النواميس كانوا رجالاً لا نساءً لذلك جاء الناموس ضد النساء وليس الله بفاعل شيئاً من هذا. إن الله يقول: أكرم أبك وأمك فتنال السعادة طول عمرك. واحد هو خالق المرأة والرجل وكلاهما من جسد واحد وصورة واحدة. وناموس واحد يجري عليهما: موت واحد وقيامة واحدة وواجب البنين واحد نحو الأب والأم.

كيف تطلب من المرأة أن تكون حكيمة، وأنت لا تقابلها بمثل ما تطلبه منها؟ كيف تسنّ شرائع مختلفة لجسد متساوٍ مع الآخر وله ذات القيمة؟ أخطأت حواء وأخطأ آدم. لم يظهر أن الواحد كان أقوى من الآخر أو أضعف من الآخر. إن المسيح وضع كليهما بطريق الخلاص. صار انساناً من أجلهما معاً. صار للرجل كما صار للمرأة.

جاء من نسل داود. أعتقد أنه لأجل هذا يُكرّم الرجل؟ بل قل انه ولد من البتول من هو فوق النساء. يصيران كلاهما جسداً واحداً. وهنا الجسد له الكرامة الواحدة. ان بولس الرسول يشرع بمثاله: «أنا أقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة» جميل أن تحترم المرأة المسيح عن طريق الرجل، وجميل ألاّ يهين الرجل الكنيسة عن طريق المرأة. على المرأة ان تحترم رجلها لأنه عليها أن تحترم المسيح. ويجب على الرجل أن يحب امرأته كما أحب المسيح الكنيسة. وعلينا أن نبحث الآية بعمق أكثر.

خضّ اللبن تحصل على السمن. ابحث، فقد تجد شيئاً شافياً كافياً، يظهر لي أن المقصود هنا منع تعدد الزوجات. لأنه ان يكن هناك مسيحيان فليكن هناك رجلان وامرأتان. واذا كان هناك مسيح واحد، رأس واحد للكنيسة، فليكن هنا جسد واحد. ألكناموس يبيح الطلاق لأي سبب. اما المسيح فلا يجيزه لكل سبب. يسمح بطلاق امرأة زنت. أما الأسباب الأخرى فيطلب أن نبخنها بتمحيص وتدقيق. المسيح يسمح بطلاق الزانية لأنها تفسد العائلة. أما الأمور الأخرى فتقع تحت سلطان العقل والحكمة. اذا رأيتها تتبرج، فردّها الى الطبيعة والبساطة. واذا سمعتها تتكلم بدون تعقل فأرشدّها. واذا رأيتها تضحك ضحكة لا خجل فيها، فاجعلها تخجل من ضحكتها. واذا لاحظت أنها تبذّر في الصرف، او تشرب الخمره فأعدها الى صوابها. واذا ذهبت الى مكان لا يليق، فأعدها بمحبة ونصح لأنها قد تجهل المخاطر التي تتعرض لها. واذا التفتت الى هنا وهناك فاردعها. لا تعاملها بقسوة، او تنفصل عنها لأن ما ينتظرها مجهول بالنسبة لك ولها. «إن نبع الماء لك ولا يشرب منه احد غيرك» و«عصفورك الجميل وغزالك المحبوب فليتبعاك في مسيرة حياتك» اذا شردت زوجتك فأنت تدفعها للشرود.

ماذا يقول الفريسيون: هذا الكلام قاس بالنسبة لهم، حتى الكلام الجيد لم يكن يعجبهم آنذاك كما لا يعجب الفريسيين اليوم أن الانتساب لا يحدد هوية الفريسي، بل الذي يحدد هذا الانتساب الى فئة معينة، انما هو المسلك. هكذا أصنف الأشوري والمصري. ومن يقف الى جانب الفريسيين بتفكيره هو فريسي. ماذا يحدث مع الفريسيين؟





ولا النجاة وبلوغ الميناء للذين يعرفون السباحة جيداً. بل كل شيء يتعلق بالله، وهو الذي يهب الظفر والذي يوصل القارب الى الميناء. فأرجع، يا هذا، كل شيء الى الله مهما تكافح وتجاهد فانك بحاجة اليه تعالى.

لقد طلبت أم ابني زبدي أن يجلس أحد ابنيها عن اليمين، وأحدهما عن اليسار في مجد يسوع. كانت مدفوعة بمحبتها لابنيها، ولا شيء يعادل محبة الأم لأولادها (أقول ذلك لأوصيكم بالوفاء لأمهاتكم) أجل، طلبت ذلك جاهلةً خطر الطلب. ماذا كان جواب المخلص؟ لقد سألت أولاً اذا كانا يستطيعان أن يشربا الكأس التي يشربها هو؟ وقبل جوابهما الايجابي (لأنه عَرَفَ بسابق علمه انهما يموتان مثله موت الشهادة) وماذا قال: «أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها، واما جلوسكما عن يميني وعن يساري، فليس لي أن أعطيه إلا للذين أعد لهم من أبي». ما هذه النتيجة؟ ما قيمة العمل اذن؟ ما قيمة الوعظ والتعليم؟ ما قيمة الجهاد في الأصوام والأسهار والتقشف والدموع؟ ما قيمة هذه الأمور اذا كان الخلاص بسابق الاختيار؟ على هذا اخشى ان يتبادر الى اذهانكم فكرٌ غير معقول ولا أساس له، وهي النظرية القائلة بسابق الوجود والحلول في الأجساد، وتناسخ هذه الأرواح بانتقالها من جسد الى جسد. والحكم عليها بالنسبة الى سالف حياتها الماضية.

اما الذي يأتي من الارادة الحرة فهو شيء محمود. أي فضل للنار اذا اشتعلت؟ لا فضل لها لأنها تحمل الحريق بطبيعتها. واي فضل للماء اذا جرى الى اسفل؟ لا فضل له لأن خاصته الطبيعية هي هذه. أي فضل للثلج اذا كان بارداً، أو للشمس اذا أدفأت وأنارت؟ انها بالطبيعة كذلك. ما هي حالة الأفضل، او الحالة الفضلى؟ انها الحالة التي فيها تجاهد ضد أهواء الجسد الطبيعية، وتتجنح عقلياً، وتصير سماوياً وفوق الجسد. تلك هي الحالة الفضلى.

اني أطلب من الخصيان المولودين بالطبيعة خصياناً، وبالطبيعة لا يستطيعون الزنا، اطلب منهم شيئاً آخر: لا تزنوا مع الالوهة ولا تهينوا المسيح الذي تزوجتم به. ولا تعتبروا الروح القدس مساوياً لكم وخليفة لأنكم صرتم به كاملين. يقول بولس الرسول: إني اذا أردت أن أرضي البشر فلست عبداً للمسيح، واذا عبدت المخلوقات، فلن أسمى مسيحياً. وما قيمة الاسم المسيحي؟ أليس هو لأن المسيح اله؟ اني أكرم بطرس مثلاً، ولكن لا أسمى بطرسياً، وكذلك أكرم بولس ولا أسمى بولسياً. أنا لا أرضى أن اتخذ اسماً بشرية ما دام ان الله خلقتني. وهكذا أنت تسمى مسيحياً لأنك تعتبر المسيح الهاً.



